مكتشفات متميّزة من عصور ما قبل التاريخ في منطقة عفرين بسورية

سلطان محيسن و تاكيرو أكازاوا

ملخّص: يتناول البحث المكتشفات الأثرية والأنثربولوجية الحديثة، من موقع مغارة الديدرية، محافظة حلب، شمالي سورية، حيث بدأت في السنوات الأخيرة أعمال تنقيب سورية – يابانية مشتركة، لازالت مستمرة. وقد أدت إلى الكشف عن بقايا أثرية، تعود الى للعصر الحجري القديم الأوسط، مثلتها الأدوات الحجرية اللفلوازية – الموستيرية خاصة؛ لكن الاكتشافات الأهم في هذا الموقع، كانت الهياكل العظمية العائدة لإنسان النياندرتال، وخاصة الهيكل الأول الذي اكتشف عام ١٩٩٣، لطفل نياندرتالي عمره حوالى السنتين. ثم الهيكل الثاني، الذي اكتشف عام ١٩٩٧، وهو أيضاً لطفل من عمر الطفل الأول نفسه تقريباً. وهذه الاكتشافات، وهي الأولى من نوعها في سورية، لها أهمية كبرى في العالم، لأنها تلقي المزيد من الضوء على قصة ظهور إنسان النياندرتال وتطوره في المشرق خاصة، وفي العالم عامة.

Abstract. *The paper presents recent archeological and anthropological discoveries which came from Dederiyeh cave in Afrin valley, Aleppo region, northern Syria, where Syrio-Japanese excavations have been going on for some years now. These excavations have revealed middle paleolithic archaeological remains, mainly stone artefacts of levallioso-mousterian Types. The most important finds, however, are the skeletal human remains of Neanderthal man .The first skeleton, which belongs to a two years old child was found in 1993, and the second skeleton, belonging to a child of almost a similar age, was found in 1997. These discoveries, the first in Syria, are of great scientific importance. They throw more light on the appearance and dispersal of Neanderthal in the Levant and the world.*

مقدمة:

أثبتت الأبحاث، التي بدأت في ثلاثينيات القرن الماضي، الأهمية الخاصة لسورية في عصور ما قبل التاريخ، حيث وجدت دلائل استيطان بشري، يعود إلى حوالي مليون سنة خلت، استمر بشكل كثيف ومتميز، على امتداد آلاف السنين (محيسن ١٩٩٩). وتعد اكتشافات السنوات الأخيرة في منطقة عفرين، من أهم النتائج التي أغنت معلوماتنا عن العصور الحجرية، من كافة جوانبها، خاصة العصر الحجري القديم الأوسط، (Middle Paleolithic). ويشغل هذا العصر الفترة الممتدة بين حوالي٢٠٠٠٠٠-٤٠٠٠٠ سنة خلت، وهو عصر ظهر فيه إنسان النياندرتال (Neanderthal)، صانع الحضارة اللفلوازية – الموستيرية (Levalloiso-Mousterian)، التي وجدت آثارها في مختلف مناطق المشرق العربي القديم، وفي بلاد الشام خاصة .

أتت هذه الآثار من مواقع متنوعة، أكثرها مواقع سطحية كشفت عنها عوامل التعرية، وبعضها مواقع بقيت محفوظة في الطبقات الجيولوجية الرباعية، العائدة إلى العصر المطير الأخير، المسمى تشكيلة الشير، في سورية (El-Chir For-mation) (Sanlaville et al 1979). والمقابل للعصر الجليدي فيرم (Wurm)، في جنوب أوربا. كما أن إنسان

ذلك العصر، سكن العديد من المغاور والملاجئ، المنتشرة في مختلف المناطق الجبلية.

إن مواقع العصر الحجري القديم الأوسط، التي نُقّبت، سواء منذ الخمسينات، مثل جرف العجلة (Coon 1957)، أو السبعينات، مثل كهف الدواره في منطقة تدمر Akazawa and Sakaguchi 1984)، فهي غنية جداً بالأدوات الحجرية؛ لكنها لم تعط أية دلائل أنثروبولوجية، إذ لم يعثر فيها على أية هياكل عظمية للإنسان، الذي أقام فيها. وهكذا، تابع المختصون جهودهم بحثاً عن تلك الهياكل، لما لها من أهمية قصوى في التعرف على صفات إنسان النياندرتال، وفي تحديد مكانته في العملية التطورية للإنسان، والتعرف على زمن انتشاره وكيفيته، في مختلف الأرجاء.

وقد قابلت في عام ١٩٨٦ الأستاذ تاكيروا أكازاوا، من جامعة طوكيو، الذي كان في زيارة استطلاعية إلى سورية. ونصحته بالذهاب إلى منطقة عفرين، التي أتيح لي التعرف عليها، ووجدت فيها دلائل أولية مهمة، تؤكد غنى هذه المنطقة بمواقع عصور ما قبل التاريخ، خاصة المغاور والملاجئ، التي سُكنت في العصر الحجري القديم الأوسط. وبالفعل، زار السيد أكازاوا هذه المنطقة، ليعود مندهشاً ومعلناً استعداده ورغبته في العمل المشترك، في المنطقة المشار إليها.

وهكذا، تشكّل في عام ١٩٨٧ فريق عمل مؤلف من كاتب البحث، والدكتور عادل عبدالسلام، من جامعة دمشق، إضافة إلى السيد أكازاوا، من جامعة طوكيو. وقد أنجز هذا الفريق، خلال مدة أسبوعين، مسحاً أولياً في المنطقة، للتحقق من طبيعة استيطانها. وتركّز البحث في منطقة جبل ليلون،سلسلة جبال سمعان، الذي تقطعه وديان فرعية، تنحدر نحو وادي نهر عفرين، وهي وديان: القرطل، وحسنلو، والديدرية، وعبدالله، والحمّام .

وكُشف، خلال عملية المسح هذه، عن حوالي (٦٠) ستين موقعاً ، هي ملاجئ أو مغاور مختلفة الحجم والأشكال؛ لكن (١٠) عشرة منها فقط احتوت دلائل مهمة، على استيطان يعود إلى عصور ما قبل التاريخ. كما حُددت (٦) ستة مواقع سطحية، انتشرت في منطقة وادي الحمّام خاصة (خارطة ١).

ومن الطبيعي ألا تكون المواقع المكتشفة كلها في الدرجة ذاتها من الأهمية، إذ إن بعضها قدم معطيات محدودة، بينما كان بعضها الآخر مصدر معلومات غنية ومنوعةMuhesen et (al, 1988). وكانت مغارة الديدرية هي الأكثر أهمية بين جميع المواقع، التي تم كشفها، وهذا ما دفع إلى تنظيم عملية تنقيب أولي في المغارة، خلال عامي ١٩٨٩-١٩٩٠، أدت إلى العثور على بقايا مختلفة من عظام النياندرتال. وكان ذلك المؤشر الأول والأهم، على ما يمكن أن يقدمه هذا الموقع من مكتشفات أنثروبولوجية وأثرية، سوف تكون قيمة علمية عظيمة. قاد كل ذلك إلى تنظيم عملية تنقيب منتظمة، لبعثة سورية - يابانية مشتركة، ابتدأت منذ عام ١٩٩٣، ما تزال مستمرة إلى الآن. كما جرى في عام ١٩٩٥مسح جيومورفولوجي وأثري، في منطقة وادي نهر عفرين، أدى إلى استكمال صورة الاستيطان البشري للمنطقة، في العصور المدروسة (Besancon et al 2000).

الواقع الجغرافي والجيومورفولوجي:

تقع منطقة عفرين في محافظة حلب، شمال غرب سورية، ويخترقها وادي نهر عفرين، الذي يشكل النهاية لشمالية للانهدام السوري الإفريقي (Rift)، الممتد من البحر الأحمر جنوباً، مروراً بالبحر الميت، فوادي عربه، ثم وادي الأردن، يليه وادي الليطاني، وبعده وادي العاصي، انتهاءً بوادي عفرين ومنطقة العمق شمالاً. وتقع المنطقة ضمن إقليم حوض العاصي (عبد السلام ١٩٩٠)، وهي تتألف من ثلاثة أشكال تضاريسية، هي:

١- سلسلة جبال سمعان، بما فيها جبل ليلون في الشرق.

٢- جبل الأكراد في الغرب.

٣- وادي نهر عفرين في الوسط.

وسلسلة جبال سمعان هي التي تعنينا هنا أكثر من غيرها، حيث توجد المواقع الأثرية، التي نعالجها. وتشكل هذه المنطقة هضبة جبلية، يتراوح ارتفاعها بين٥٥٠م و٥٧٥م، وبمعدل ٤٠٠م فوق سطح البحر. وينحدر السّفح الغربي لهذه المنطقة بشكل حاد، خاصة في المنطقة الواقعة بين قرية الغزاوية جنوباً،

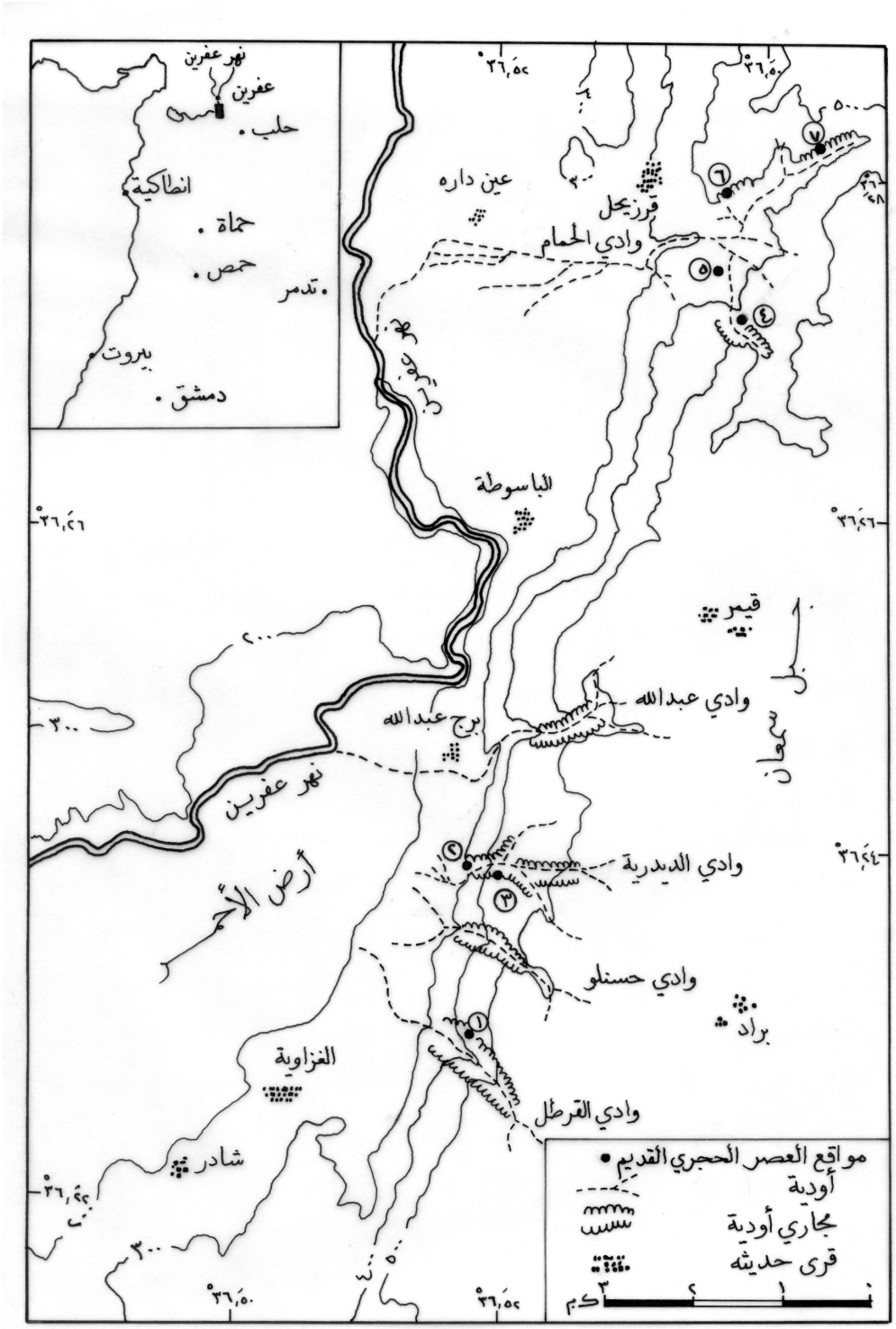

خارطة ١: انتشار مواقع عصور ما قبل التاريخ في منطقة وادي عفرين ، رقم (٣) مغارة الديدرية.

لوحة ١: منظر عام لمغارة الديدرية.

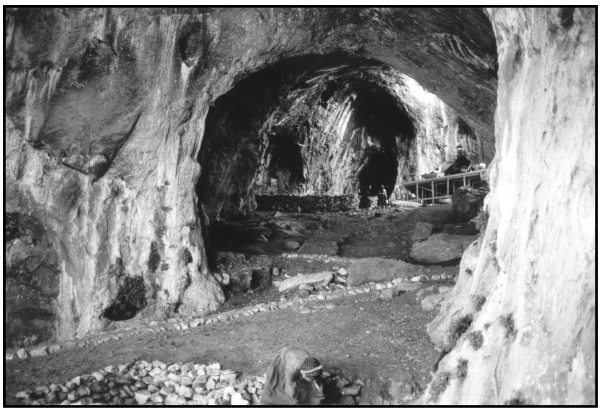

لوحة ٢: مغارة الديدرية من الداخل.

وقرية قرزيحل شمالاً، حيث تقع الوديان الخمسة، التي أشرنا إليها (القرطل، حسنلو، الديدرية عبد الله، الحمّام). وهي وديان تنحدر بخط شرق/غرب باتجاه سهل عفرين، حيث يشكل نهر عفرين وادياً يتراوح عرضه بين ١,٥- ٢ كم في الشمال، وبين ٢-٣ كم في الجنوب. بينما يتراوح هذا العرض، في وسط الوادي، بين ٢٠٠-٣٠٠م فقط، كما في منطقة خانق الباسوطة، التي يرسم النهر فيها تعرجات (Meanders) مختلفة.

وتعود سلسلة جبال سمعان إلى ترسبات من النوع الهلفيتي (Helvetian)، في عصر الميوسن الأعلى، منذ حوالي عشرة مليون سنة. ويدخل في تركيبها الحجر الكلسي والمارن والصوان؛ ويتراوح طول الأودية، التي تقطع هذه السلسلة، بين ٢,٤ - ٦,٢ كم، وعمقها بين ٢٠-٩٠م.

بينما يتراوح ارتفاعها بين ٢٨٠-٣٥٠م فوق سطح البحر. كما أن جميع المغاور والملاجئ في الأودية المشار إليها، ذات أصل كارستي. وقد أمكن من الناحية الجيومورفولوجية تمييز مجموعة من الأسرة، التي شكلها نهر عفرين على امتداد الرباعي، أحدثها السرير الأول (Terrasse 1) المجاور لوادي النهر مباشرة، وبارتفاع ١-٢م عن مستوى الماء، وهو عائد لعصر الهولوسين؛ بينما تعود جميع الأسرة، التي تلي إلى عصر البليستوسين، وهي: السرير الثاني (T 2)، الذي يتألف من حصى كلسية وبازلتية متوضعة في إطار من الطين والرمل بسماكة ١٠- ١٥ م، ويرتفع هذا السرير بين ٤-٥ م عن مستوى النهر الحالي. أما السرير الثالث (T 3) فيشبه في ترسباته السرير الثاني، لكنه يرتفع بين ٨-١٠م عن مستوى النهر، ويشكل سطوحاً واسعة تقوم عليها تلال أثرية مختلفة. بينما يرتفع السرير الرابع (T 4) بين ١٥-٢٠م عن مستوى النهر. وهناك بقايا من سرير خامس (T 5)، يرتفع بمعدل ٢٥م عن مستوى النهر الحالي.

وقد احتوت الأسرة المشار إليها، سواء على السطح، أو ضمن تشكلاتها الجيولوجية، على أدوات حجرية من عصور مختلفة، تشير إلى استيطان بشري، تعود بواكيره إلى العصر الآشولي الأوسط والأعلى (العصر الحجري الأدنى). دلت عليه الفؤوس الحجرية (Bifaces)، التي يمكن نسبها لهذه المرحلة وقد أتت، بوجه خاص، من موقع دير الصوان، في المجرى الأعلى للنهر. ثم أصبح هذا الاستيطان أكثر كثافة في العصر اللاحق (العصر الحجري الأوسط). وهو ما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل.

المكتشفات الأثرية والأنثربولوجية:

يعود الاستيطان الأهم في هذه المنطقة، كما سبق أن أشرنا، إلى العصر الحجري القديم الأوسط، الذي وجدت آثاره في مواقع (الديدرية، القرطل، الحمّام) خاصة. إضافة إلى المواقع السطحية في وادي الحمام ، التي تحمل الاسماء (A. B. C. D.). فقد أعطت جميع هذه المواقع أدوات حجرية، من النوع اللفلوازي-الموسيتري، بينها النصال (blades)، التي استخرجت من نوى مختلفة الأشكال (Nucleus)، أهمها النوى

المحضرة من خلال طرقات تنطلق من محيط النواة إلى مركزها (Centripetal Preparation). وتوجد أدوات مختلفة، خاصة المقاحف (Side Scrapers)، والمكاشط (Endscrapers)، والأزاميل (Burins)، والقطع المشذبة (Retoutched Pieces). كما أعطت المغارة كميات مهمة من عظام الحيوانات المتنوعة.

مغارة الديدرية[1]: هي مغارة كبيرة، ذات شكل مدهش، يبلغ طولها حوالي الخمسين متراً (٥٠م)، وارتفاعها حوالي العشرة أمتار (١٠م)، ومتوسط عرضها حوالي خمسة عشر متراً (١٥م). ولها مدخلان: واحد من جهة الوادي، والآخر من جهة الهضبة. لذلك أطلق عليها السكان المحليون الأكراد: (دوديري)، وتعني ذات البابين، ومنها جاءت التسمية الديدرية (اللوحتان ١، ٢). تقع المغارة على ارتفاع ٤٥٠م فوق سطح البحر، وقد اكتشفت عام ١٩٨٧م، أثناء المسح الذي جرى في منطقة عفرين.

وقد دلت الآثار المتناثرة في المغارة، من أدوات حجرية وبقايا عظمية ظهرت على السطح، بفعل حفريات اللصوص الباحثين عن الكنوز، على الأهمية الاستثنائية لهذا الموقع. بدأت أعمال التنقيب في المغارة في أعوام ١٩٨٩م و١٩٩٠م ، حيث تركز العمل في المناطق، التي خرّبها لصوص الآثار، بهدف تحديد الطبقات الأصلية، وتميزها عن الطبقات المخرّبة. وقد كُشف خلال موسمي التنقيب المشار إليهما، عن المزيد من الأدوات الحجرية اللفلوازية -الموستيرية، إضافة إلى بقايا عظمية مختلفة عائدة إلى إنسان النياندرتال. وهذا هو الكشف الأهم، الذي دفع إلى البدء، منذ عام ١٩٩٣، بتنقيب منتظم، تركز على القسم الخلفي من المغارة، حيث كشف عن المزيد من الطبقات الأثرية، العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط. وتوج ذلك بالكشف الكبير الأول، حين عُثر على هيكل عظمي كامل لطفل نياندرتالي، عمره حوالي السنتين. وفي عامي ١٩٩٥- ١٩٩٧م، اكتشفت أيضاً بقايا هيكل عظمي لطفل آخر، عمره مقارب لعمر الطفل الأول.

وقد تركز التنقيب، كما أشرنا، في الجهة الخلفية من المغارة، التي قُسّمت إلى مربعات بأبعاد ٢ × ٢ م، تتجه من الشرق إلى الغرب. ونقّب حتى الآن حوالي (٨٠ م) ثمانين متراً

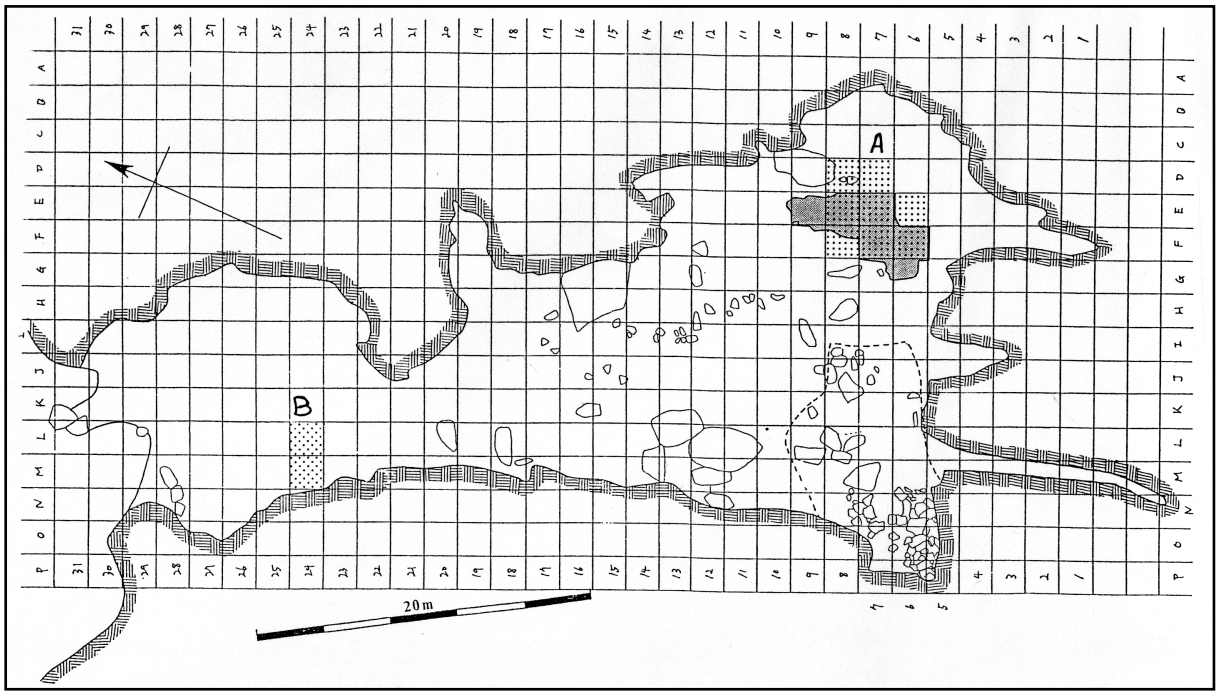

شكل ١: مخطط مغارة الديدرية: (A) منطقة العصر الحجري القديم الأوسط (B) منطقة العصر النطوفي

مكعباً (الشكل ١). واستناداً إلى طبيعة الترسبات، أمكن تحديد خمس عشرة طبقة جيولوجية أثرية. وكانت الطبقات (١٢،١١،١٠) هي الأغنى، سواء بالأدوات الحجرية، أو بالهياكل العظمية، والبقايا الحيوانية والنباتية. فالطبقة الحادية عشرة أعطت الهيكل النياندرتالي الاول، كما أعطت الطبقة العاشرة بقايا رماد ومواقد، دليل الاستيطان الكثيف. في حين تكونت الطبقة الثالثة من ترسبات رماد، بعضها على شكل حفر قطرها ٣٠-٤٠ سم. ووجد في هذه الطبقة الهيكل النياندرتالي الثاني، إضافة إلى بقايا نباتية وحيوانية مختلفة؛ بينما احتوت الطبقة الأولى على الكثير من الأدوات الحجرية، والبقايا العظمية. وبشكل عام، يمكن تقسيم بقية الطبقات الأثرية والجيولوجية في المغارة، إلى وحدتين رئيسيتين:

الوحدة الأولى: تضم سبع طبقات (الطبقات ٢ و ٤ إلى ٩)، وهي ذات ترسبات متماسكة وغنية بالحجر الكلسي، ولونها متدرج بين الفاتح إلى البيج أو البني المائل إلى الاحمرار أحياناً.

في هذه الوحدة وجدت الأدوات الحجرية اللفلوازية - الموستيرية مع بقايا عظام حيوانية كثيفة.

الوحدة الثانية: تضم أربع طبقات (الطبقات من ١٢ إلى ١٥)، وتتألف من ترسبات أكثر تجانساً من طبقات الوحدة الأولى، ولونها غامق وفيها بعض الأحجار الكلسية المتآكلة (الشكل ٢).

وتجدر الإشارة إلى ثلاث حفر (Pits)، أكبرها واحدة قطرها ٢,٥سم، وعمقها متر واحد، وجدت فيها الأدوات اللفلوازية -الموستيرية، المختلفة، مع فخار يعود إلى الألف الأول ق. م، وقد عُثر على الهيكل العظمي الأول، تحت مستوى هذه الحفرة مباشرة. ولحسن الحظ، بقي هذا الهيكل سليماً، إذ لو تعمقت الحفرة أكثر لأدى ذلك إلى تلف الهيكل، وضياع معلومات ذات قيمة علمية عظيمة.

المكتشفات الأنثربولوجية:

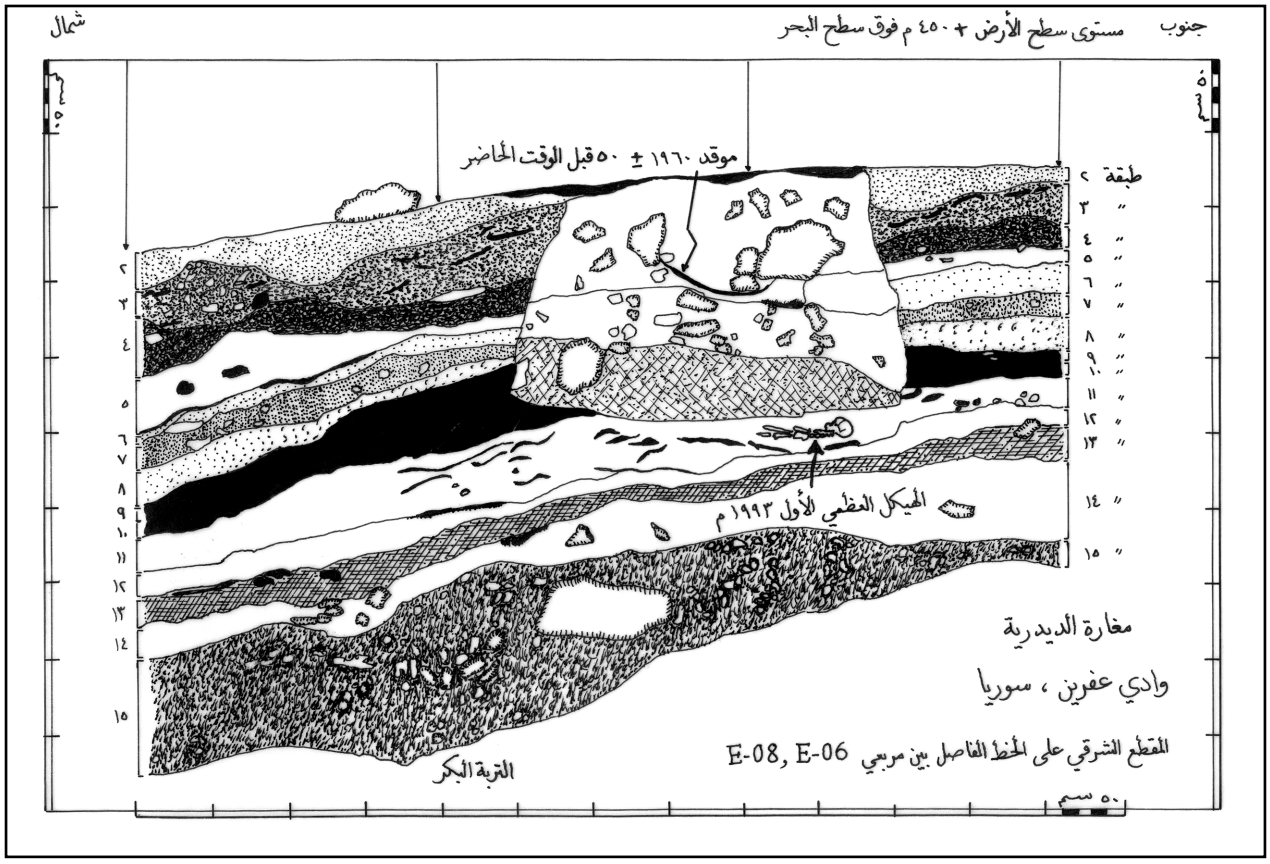

شكل ٢: مقطع عام للطبقات الأثرية في مغارة الديدرية.

تعود أول المكتشفات الأنتربولوجية إلى مواسم التنقيب الأولى، التي جرت في المغـــارة بين الأعوام ١٩٨٩-١٩٩٠، إذ عُثر على (٧٠) سبعين قطعة عظمية بشرية، كانت كلها، ما عدا قطعة واحدة، خارج الطبقة الأثرية الأصلية، ومبعثرة بفعل حفريات لصوص الآثار. وقد تبين أن هذه القطع تعود إلى أفراد نياندرتاليين. وهذه الأجزاء، هي: عظم الساعد الأيسر (Humerus) لطفل يتراوح عمره ٣-٥ أشهر، وهي القطعة الأهم والوحيدة التي وجدت ضمن طبقة سليمة، عائدة للعصر الحجري القديم الأوسط، وهناك نهاية عظم الزند (Ulna)، وسلاميات (Phalanges) للقدم، واليدين، وأسنان، وعظم الكتف (Scapula)، وغيرها (Akzazawa and al 1993).

الهيكل العظمي الأول:

اكتشف هذا الهيكل في عام ١٩٩٣، في المربع (DO 6)، في الطبقة الحادية عشرة، على عمق ١,٥م، وهو هيكل عظمي كامل تقريباً، عدا بعض عظام الوجه وسلاميات القدم اليمنى (لوحة ٣). ودلت الدراسة على أن الهيكل يعود لطفل، كان عمره حوالي السنتين عند موته. وقد دُفن في حفرة مستلقياً على ظهره، يداه ممدودتان، وقدماه مثنيتان؛ تحت رأسه بلاطة حجرية ناعمة، وعلى صدره، من جهة القلب، أداة صوانية. وهذه كلها دلائل دفن شعائري مقصود، وتعد من أول وأقدم عمليات الدفن في التاريخ البشري (لوحة ٤). ومن جهة ثانية، تبيّن أن هذا الطفل يحمل صفات نياندرتالية كلاسيكية بدت ظاهرة ، سواء من عظام الجمجمة، أو الوجه، والفك والأسنان، والأطراف وغيرها، وأن طوله كان حوالي ٨٣ سم، وهو عموماً غليظ في عظامه، ومن الممكن أن يكون الهيكل لصبي ذكر (Akazawa and al 1995a,b; Dodo and al 1998).

الهيكل العظمي الثاني:

كُشف عن هذا الهيكل في عام ١٩٩٧و١٩٩٨، في الطبقة الثالثة (٣) من المغارة وعلى عمق ٥٠سم، في المربع (DO 8) الشكلان ٣، ٤). وهو ليس في درجة اكتمال الهيكل الأول نفسها، وإنما احتوى على أجزاء مهمة من عظام الجمجمة

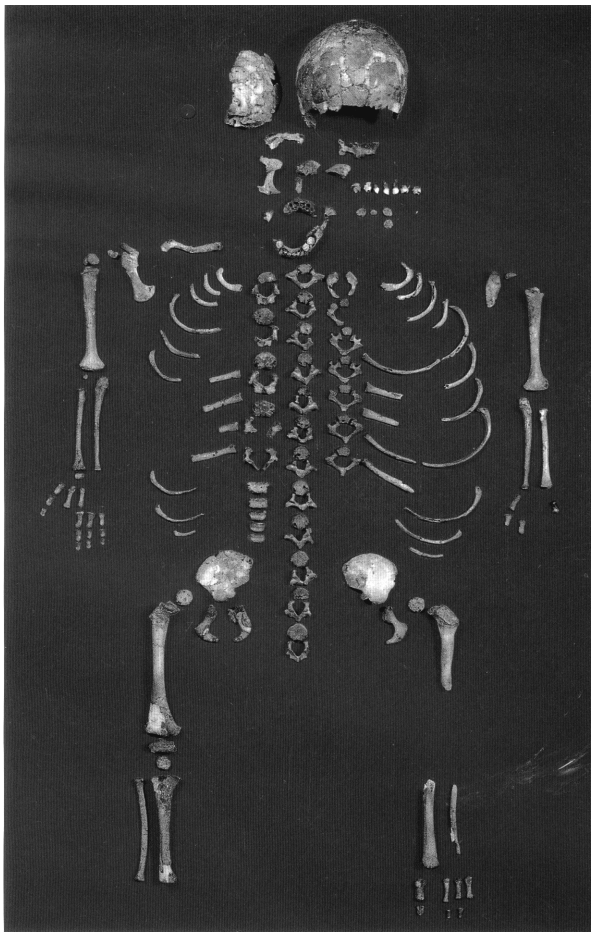

لوحة ٣: الهيكل العظمي الأول من مغارة الديدرية.

والوجه والفك والأسنان، إضافة إلى بعض عظام العمود الفقري والأطراف، خاصة الأقدام والحوض (اللوحات ٥-٧). وقد تبين أنه، أيضاً، لطفل عمره حوالي السنتين، أي في عمر الهيكل الأول، ولكن عظامه أقل غلاظة، وهو ربما كان لأنثى. وقد يكون الاختلاف بين الهيكلين بسبب فروق بسيطة في السن، قد لا تتجاوز الأسابيع، أو الأشهر القليلة، أو لاختلاف البيئة، أو اختلافات فردية، أو غير ذلك (Akazawa and al 1999).

وبشكل عام، فإن الأجزاء العظمية، التي وجدت حتى الآن في مغارة الديدرية، يمكن أن تعود إلى حوالي خمسة عشر فرداً نصفهم يافعين، والنصف الآخر أطفال. ومن المفيد الإشارة إلى أنه حتى الآن لم يُتحصل على تاريخ مخبري دقيق للطبقات الأثرية، التي وجدت فيها تلك العظام. وهناك عينات

لوحة ٤: الهيكل العظمي الأول كما وجد في الطبقة الأثرية الحادية عشرة.

من الصوان المحروق قيد التحليل والتأريخ، في مخبر جيف سور ايفيت (Gif sur Yvette) لدى السيدة هيلين فالاداس (H. Valladas) في فرنسا. ونأمل أن نحصل على نتائج مفيدة قريباً، مما سيكون له فائدة كبرى في تحديد دقيق لعمر هذه الهياكل، وهو ما يمكن تقديره بما لا يتجاوز مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) سنة خلت.

ومما لا شك فيه، فإن هياكل موقع الديدرية سوف يكون لها دور كبير، في إيضاح نقاط عديدة، تتعلق بإنسان النياندرتال، الذي لا يزال يثير جدلاً قوياً بين الباحثين، يتعلق بأصله وانتشاره ومصيره ومكانته، في العملية التطورية للجنس البشري، التي أدت إلى ظهور الإنسان العاقل الحالي. ويمكن إيجاز آراء وفرضيات الباحثين حول هذا الموضوع، من خلال موقفين متباينين:

الموقف الأول: يرى أن الإنسان العاقل، الجد المباشر للإنسان الحالي، انحدر منذ حوالي (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف سنة، من النياندرتال، الذي انحدر، منذ حوالي (٢٠٠,٠٠٠) مائتي ألف سنه، من الإنسان المنتصب القامة (Homo-erectus)، الذي انحدر، بدوره، منذ حوالي ١,٥مليون سنة، من الإنسان الصانع (Homo - habilis)، الذي ظهر لأول مرة في شرق أفريقيا، منذ حوالي ٢,٥مليون سنة مضت .

الموقف الثاني: يعتقد أنصاره أن الإنسان العاقل لم ينحدر من إنسان النياندرتال، بل إن هذين النوعين،العاقل والنياندرتال ، قد انحدرا من الإنسان منتصب القامة، وفي مناطق جغرافية مختلفة وأزمنة متقاربة. فالنياندرتال ظهر في أوروبا منذ حوالي (٢٥٠,٠٠٠) مائتين وخمسين ألف سنه خلت، بينما ظهر الإنسان العاقل في أفريقيا، في زمن متقارب .

وتشير الدراسات إلى هجرة النياندرتال إلى الشرق الأوسط، وتعاصره لزمن معين، مع الإنسان العاقل، الذي وصل إلى المشرق، أيضاً، قادماً من أفريقيا. وهكذا، يقول

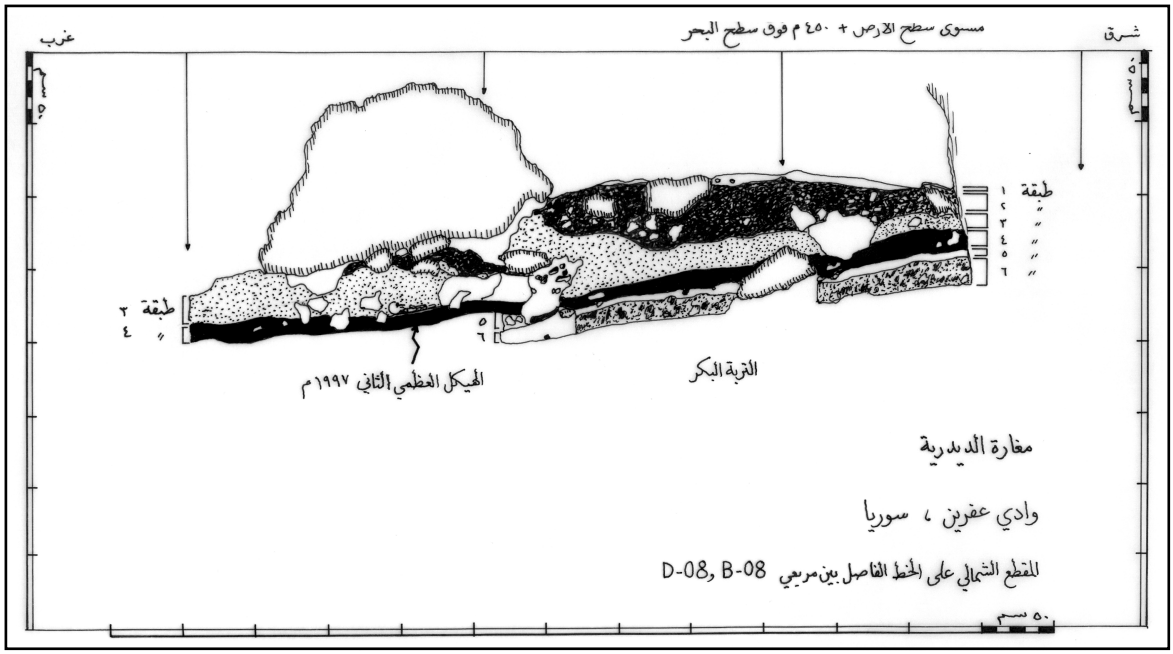

شكل ٣: مقطع الطبقة الأثرية الثالثة، التي وجد فيها الهيكل العظمي الثاني.

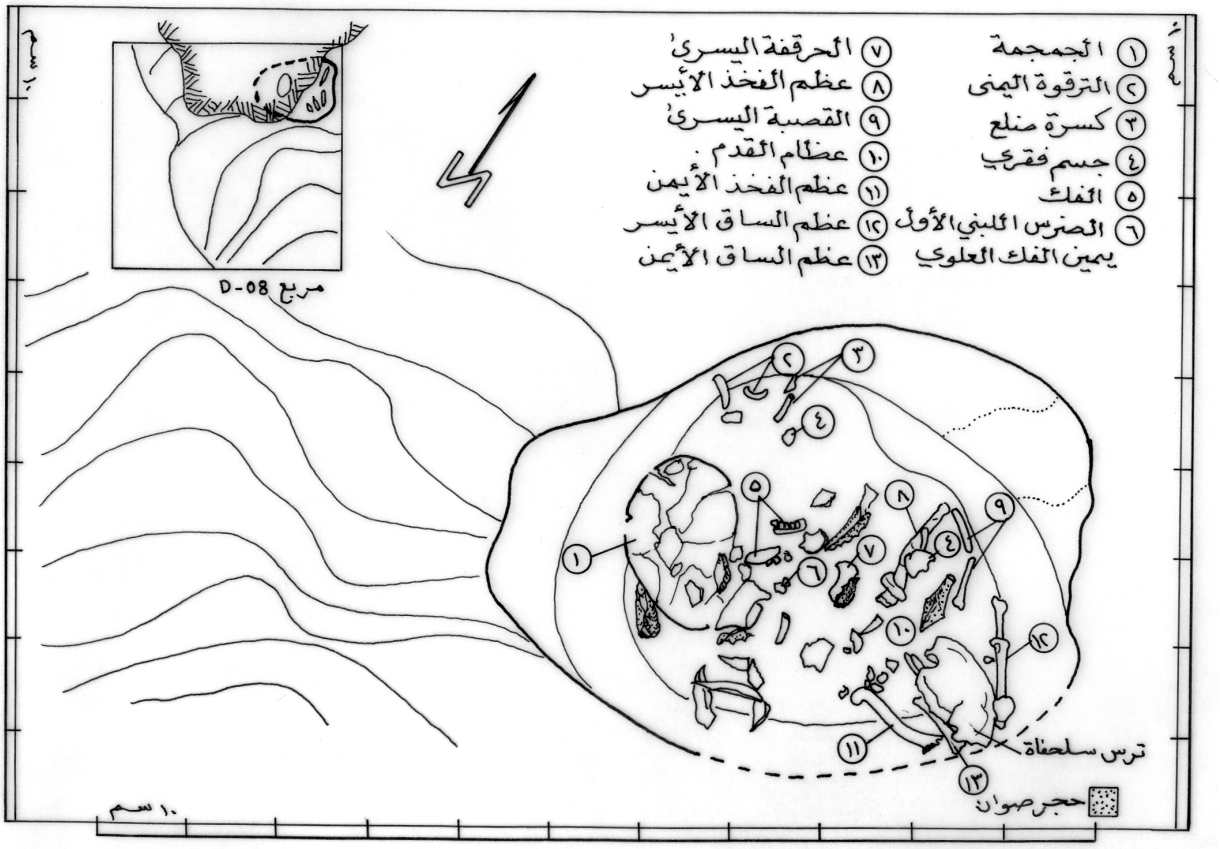

شكل ٤: الأجزاء التابعة للهيكل العظمي الثاني، كما وجدت في الطبقة الأثرية الثالثة.

أصحاب هذا الموقف بأن لا علاقة تطورية بين هذين النوعين. كما تشير إلى ذلك دراسات (DNA) أيضاً، إضافة إلى وجود الإنسان العاقل في المشرق منذ حوالي ١٠٠ألف سنه خلت، على أقل تقدير. بينما معظم الهياكل النياندرتالية في هذه المنطقة، لا يتعدى عمرها ٦٠ألف سنة؛ إذ إن هياكل مواقع السخول وجبل قفزة في فلسطين، المنسوبة إلى الإنسان العاقل، هي أقدم من هياكل مواقع الطابون والكبارا والعامود، في فلسطين، وشانيدار في العراق، التي وجدت فيها الهياكل العظمية العائدة لإنسان النياندرتال، الذي تعود له أيضاً هياكل موقع الديدرية في سورية. وهكذا فإن الطبقات الأثرية، التي وجد فيها أطفال الديدرية هي دليل على الوصول المتأخر للنياندرتال، أي بعد وصول الإنسان العاقل ،إلى المشرق العربي القديم. وفي كل الأحوال، لعبت منطقة عفرين، التي تشكل القسم الشمالي من انهدام البحر الميت، الذي يشكل بدوره القسم الشمالي للانهدام الأفريقي الكبير، دور الممر الطبيعي والرئيس في انتقال الإنسان من أفريقيا، باتجاه أوراسيا أو العكس .

المكتشفات الأثرية:

يعود الاستيطان الرئيسي والأهم فى مغارة الديدرية إلى العصر الحجري القديم الأوسط، وهو عصر إنسان النياندرتال، الذي اشتهر بالصناعات اللفلوازية – الموستيرية، المتميزة بالنوى اللفلوازية، التي استحضرت منها النصال والشظايا المستخدمة لتصنيع مختلف أنواع الأدوات، كالمقاحف والمكاشط والأزاميل والحراب والأدوات المسننة، والأدوات المغرضة، وغيرها (الشكلان: ١٢، ١٣). ومن المعلوم أنه حُددت ثلاث مراحل متعاقبة، في الصناعات الحجرية اللفلوازية –الموستيرية، التي رافقت الهياكل العظمية النياندرتالية ، وذلك اعتماداً على الطبقات الأثرية في مغارة الطابون. ثم تأكد وجود هذه المراحل في مواقع أخرى (Copeland 1975)، وهي:

المرحلة د (Phase D): وهى الأقدم، وتتميز بوجود النوى ذات القطب المتلاقي (Unipolar Convergent Core). وتسيطر فيها الحراب الطويلة الرفيعة، وترتفع فيها، أيضاً، نسبة الأدوات العائدة إلى العصر الحجري القديم الأعلى، كالمكاشط والأزاميل. ومن أهم المواقع العائدة إلى هذه المرحلة: كهف الدوارة، وأبو سيف في الأردن، إضافة إلى السوية (D) في

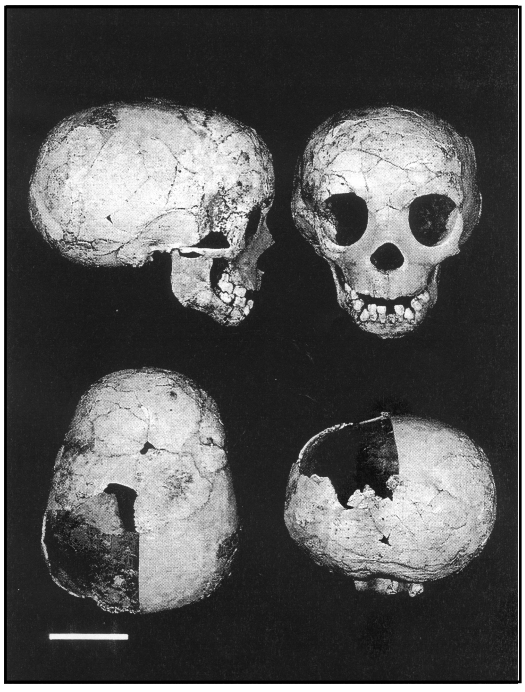

لوحة ٥: جمجمة الهيكل العظمي الثاني من مختلف الاتجاهات .

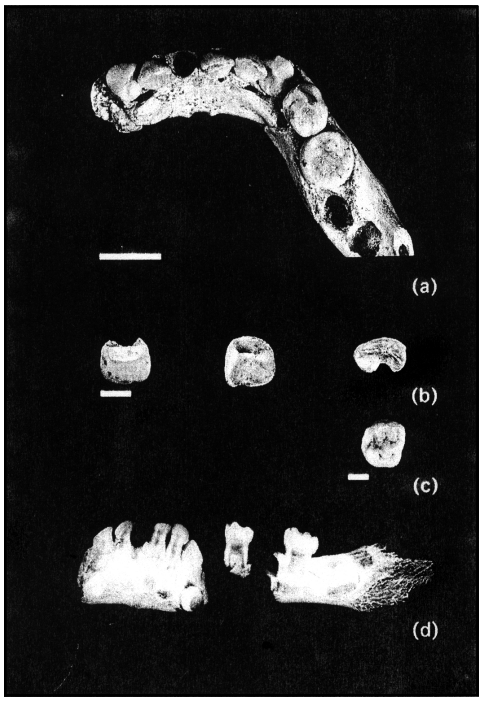

لوحة ٦: أجزاء عظام الفك للهيكل العظمي الثاني .

الطابون.

المرحلة س (Phase C): تلي المرحلة (D)، وتتميز بوجود الأدوات االعريضة والقصيرة، ذات الأشكال البيضوية، المستخرجة من نوى ذات تشذيب مركزي. أي إن الطرق يتجه من الإطار نحو مركز النوى (Radial Preparation Core). وهذه المرحلة معروفة، خاصة من مغاور السخول وقفزة في فلسطين، إضافة إلى السوية (C) في مغارة الطابون.

المرحلة ب (Phase B): وهي المرحلة الأخيرة والأحدث في الصناعات الصوانية اللفلوازية الموستيرية. وتتميز بوجود نوى تشبه نوى المرحلة (D)، أي ذات قطب واحد متلاق، ولكنها استخدمت لاستخراج حراب قصيرة ذات قاعدة عريضة ، كما هو الحال في السوية (D) في الطابون وموقع الكبارا في فلسطين، والكوة في لبنان .

وإذا قارنا الصناعات الحجرية، التي اكتشفت في طبقات العصر الحجري القديم الأوسط في الديدرية، مع المراحل التي أتينا على ذكرها، نلاحظ أن أدوات الديدرية تقع بين مرحلتين (B, C)؛ ولكن ليس في المرحلة (D)؛ إذ تسيطر في الديدرية الأدوات البيضوية، إضافة إلى الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة. وإذ عدنا إلى الأدوات الحجرية، التي أتت من الطبقات، التي عثر فيها على الهياكل العظمية، أي الطبقتين الحادية عشرة والطبقة الثالثة، ويُلاحظ تشابهاً قوياً بين هاتين الطبقتين، إذ تسيطر في كلاهما النوى ذات التحضير اللفلوازي النموذجي، سواء كان مركزياً(Radial Preparation)، أو ذا اتجاه واحد (Unidirectional Preparation). وتسيطر في كلتا الطبقتين الحراب اللفلوازية، وهما تتميزان بسيادة أنواع مختلفة من المقاحف، بعضها له حواف مستقيمة، وآخر له حواف محدبة أو مقعرة. وهي مقاحف يحمل بعضها آثار تشذيب إضافي، واستخدام كثيف. كما وجدت السكاكين ذات الظهر الطبيعي، أوالمشذب (Backed Knifes).

ويلاحظ، عموماً، أن الأدوات الحجرية، العائدة لمرحلة الطابون (C)، وجدت مترافقة مع الهياكل العظمية، في مواقع قفزة والسخول. وهي هياكل نُسبت إلى نوع الإنسان العاقل القديم (Archaic Homo sapiens)؛ بينما وجدت الأدوات، العائدة إلى المرحلة (B)، مرافقة للهياكل العائدة

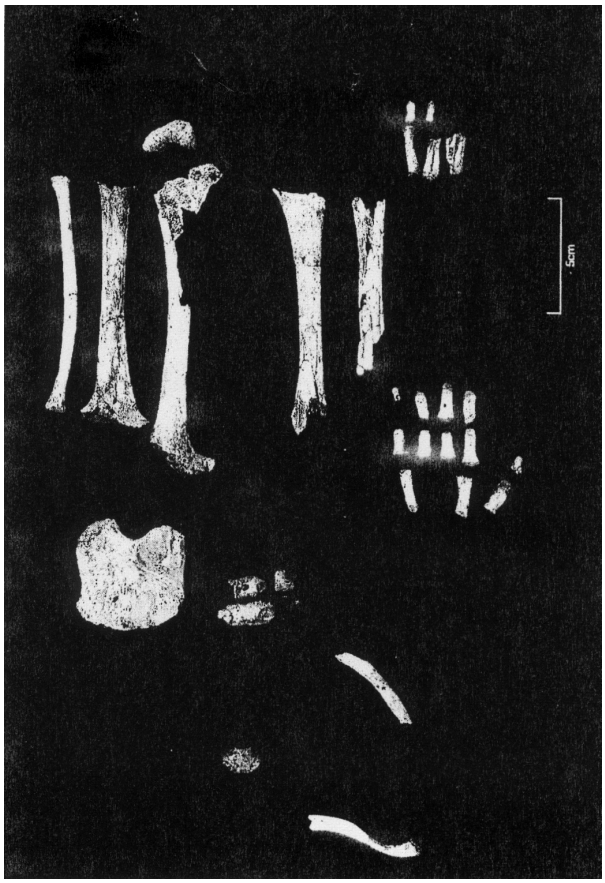

لوحة ٧: أجزاء عظام الجسم للهيكل العظمي الثاني .

لإنسان النياندرتال، في مواقع الطابون والعامود والكبارا (Bar-Yosef 1992; Vandermeersch 1989). وهكذا، فإن موقع الديدرية يقدم دليلاً جديداً على ارتباط إنسان النياندرتال، مع الأدوات الحجرية العائدة للمرحلة (B). وهذا بدوره يدل على اختلاف الصناعات الحجرية في عصر العصر الحجري القديم الأوسط، بشكل عام (الشكلان: ٧، ٨).

ومن جهة أخرى، فقد أدت الأسبار، التي جرت في مدخل المغارة، إلى العثور على بقايا استيطان، تعود إلى العصر الحجري الوسيط (Mezolithic)، أي إلى العصر النطوفي تحديداً؛ حيث وجدت الأدوات الهلالية (lunates)، والأدوات الميكروليتية الهندسية (Microlithic - Geometric)، وهناك الأدوات البازلتية، وأدوات الزينة من العظام، اضافة الى بقايا المواقد . كل ذلك يدل على مرحلة استيطان داخل المغارة، وفي جهة مدخلها الثاني على الهضبة، وذلك منذ حوالي الألف

الثانية عشرة ق . م (الشكل ٩) .

المكتشفات البالنتولوجية:

لم تُدرس حتى الآن البقايا الحيوانية والنباتية القديمة، التي تدخل في البحث البالنتولوجي (Paleontology)؛ ولكن دراسة أولية، خاصة من السويتين الأولى والثالثة (١، ٣)، أجراها السيد كريستيان غريغو، بيّنت أن الطبقات الأثرية في المغارة، احتوت على كميات كبيرة ومتنوعة لعظام الحيوانات (Griggot 2000). وأهم هذه الحيوانات كان الماعز البري (Capara aegagrus)، والتيس (المفلون) (Mouflon/Ovis ammon)، اللذان وجدا في المستويات الدنيا من المغارة خاصة، بين السويات (١٢-١٥). وقد بقي هذان النوعان يسيطران في السويات اللاحقة (٧ - ١١)، ويشكلان حوالي ٨٠٪ من العظام الحيوانية. ويلاحظ أيضاً تزايد حيوانات السهوب، مثل: الغزال (Gazelle)، وفصيلات وحيد القرن (Rhinoceroidae)، والخيليات (Equidae). إضافة إلى تزايد حيوانات المناطق المعتدلة: مثل الإيل الأحمر Red (Deer)، والإيل الأسمر (Fallow Deer)، والخنزير البري (Boar)، والثور الوحشي (Wild Ox). ثم تزداد أهمية حيوانات المناطق المعتدلة في الطبقات اللاحقة (٣-٦)، وتصل نسبة فصيلة الأيائل (Cervidae) إلى ٣٠٪، وتصبح هذه النسبة٥٣٪ في السوية الأولى؛ بينما تتراجع نسبة حيوانات السهوب إلى ٢٣٪، فتصل نسبة المفلون والماعز إلى ٢٤٪. وبشكل عام، يُلاحظ سيطرة الحيوانات السهبية (المفلون والماعز)، في الطبقات الدنيا التي تصل إلى ٨٠٪. وتنخفض هذه النسبة كلما اتجهنا نحو الطبقات العليا؛ بينما يلاحظ أن حيوانات السهوب (الإيل)، كانت قليلة في الطبقات الدنيا، وهي تزداد كلما اتجهنا نحو الطبقات العليا، لتصل إلى نسبة حوالي ٤٠٪. ويدل انتشار الحيوانات بهذا الشكل، على سيادة مناخ جاف في البدء، أي في الطبقات الدنيا من المغارة، ثم أصبح هذا المناخ أكثر رطوبة في النهاية، أي في الطبقات العليا، وهذا بدوره ساعد على ظهور الغابات، التي جذبت

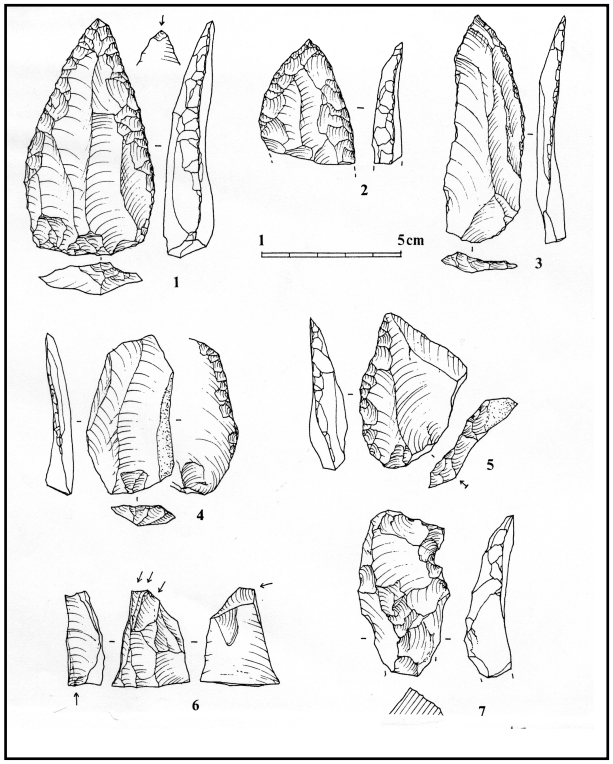

شكل ٥: أدوات حجرية موستيرية من مغارة الديدرية. ١-٢: حراب موستيرية، ٣-٥: مقاحف، ٦: إزميل، ٧: أداة مفرّضة.

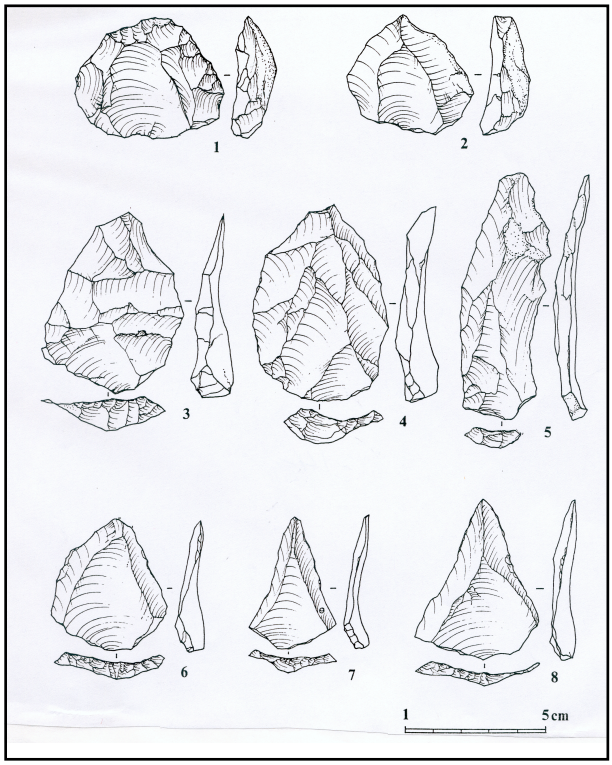

شكل ٦: أدوات حجرية موستيرية من مغارة الديدرية . ١: نواة لفلوازية للشظايا، ٢: نواة لفلوازية للنصال ، ٣-٤: شظايا لفلوازية، ٥-٨: نصال لفلوازية.

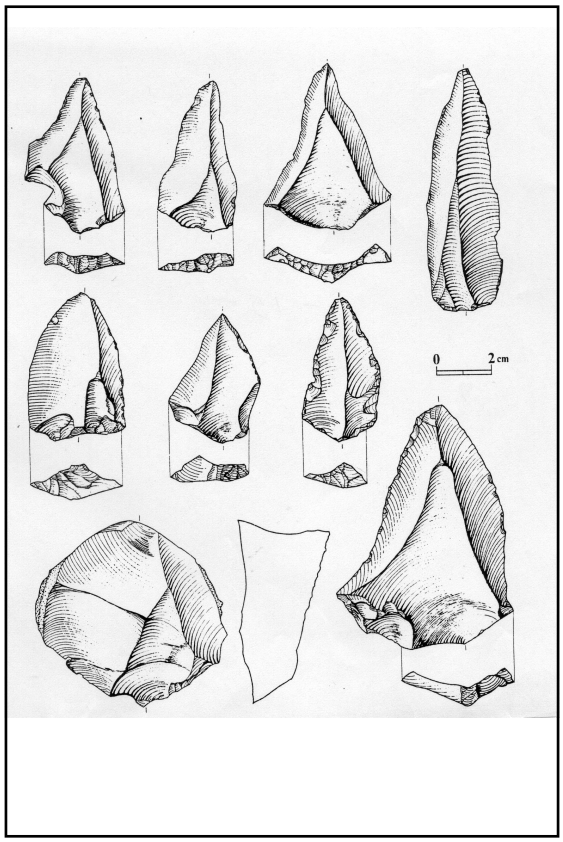

شكل ٧: أدوات موستيرية في السوية (١١) حيث وجد الهيكل العظمي الأول .

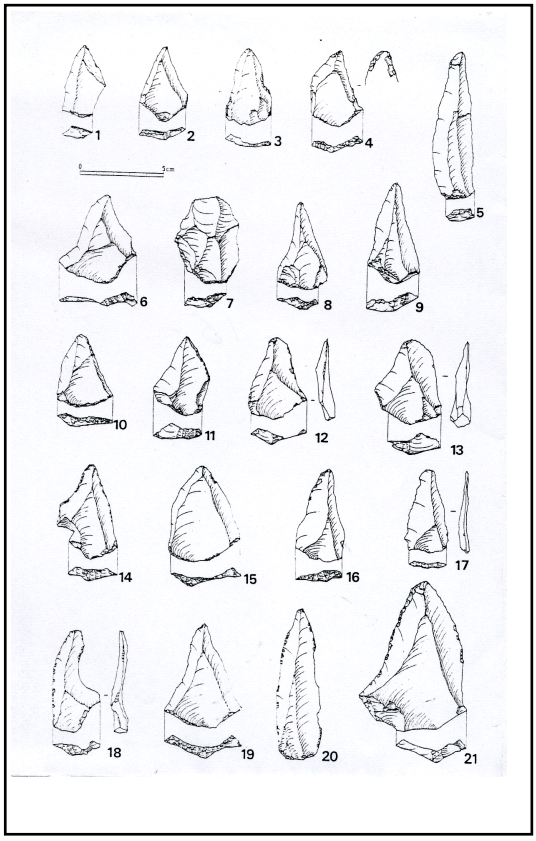

شكل ٨: أدوات موستيرية في السوية الثالثة (١-٩) حيث وجد الهيكل العظمي الثاني، والسوية الحادية عشرة (١٠-٢١) حيث وجد الهيكل

حيوانات السهوب إليه ا(الشكل ١٠). ومن جهة أخرى، يلاحظ أن أكثر الحيوانات هي من نوع ذات الحافر، خاصة الماعز والمفلون والغزال. ومعظم الحيوانات من آكلة العشب، بينما القليل منها من آكلة اللحم، كالضبع والأسد والنمر والقط البري والثعلب. ومن الواضح أن إنسان الديدرية اصطاد تلك الحيوانات ونقلها إلى الموقع؛ إذ يُلاحظ وجود كبير للعظام ذات القيمة الغذائية العالية، كالأطراف. إن حالة العظام المتحجرة، أو المتآكلة، لا تسمح بتحديد دقيق للنشاط، الذي مورس فى تقصيب تلك الحيوانات. كما توجد عظام محروقة مع وجود ملحوظ للقطع الغنية بالنخاع. كل ذلك يدل على نشاط اجتماعي-اقتصادي متطور ومنظم، لمجتمعات العصر الحجري القديم الأوسط .

وأما فيما يتعلق بالنباتات، فيلاحظ أن اللوزيات (Celtis)، كانت من أهم النباتات، التي وجدت في السويات العليا. إن وجود هذه النباتات، إضافة إلى الكميات الكبيرة من الرماد ودلائل المواقد، يشير إلى المناخ الرطب والبارد، الذي تدل عليه البقايا الحيوانية، مع التذكير بأن مناخ العصر الحجري القديم الأوسط، كان في مجمله مناخاً بارداً، وإن تخللته فترات أكثر دفئاً؛ ولكن إنسان النياندرتال، الذي عاش في ذلك العصر، كان قادراً على التأقلم مع طبيعة هذا المناخ المتقلبة.

د. سلطان محيسن - قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة دمشق - دمشق - سورية.
د. تاكيرو أكازاوا - جامعة طوكيو - اليابان.

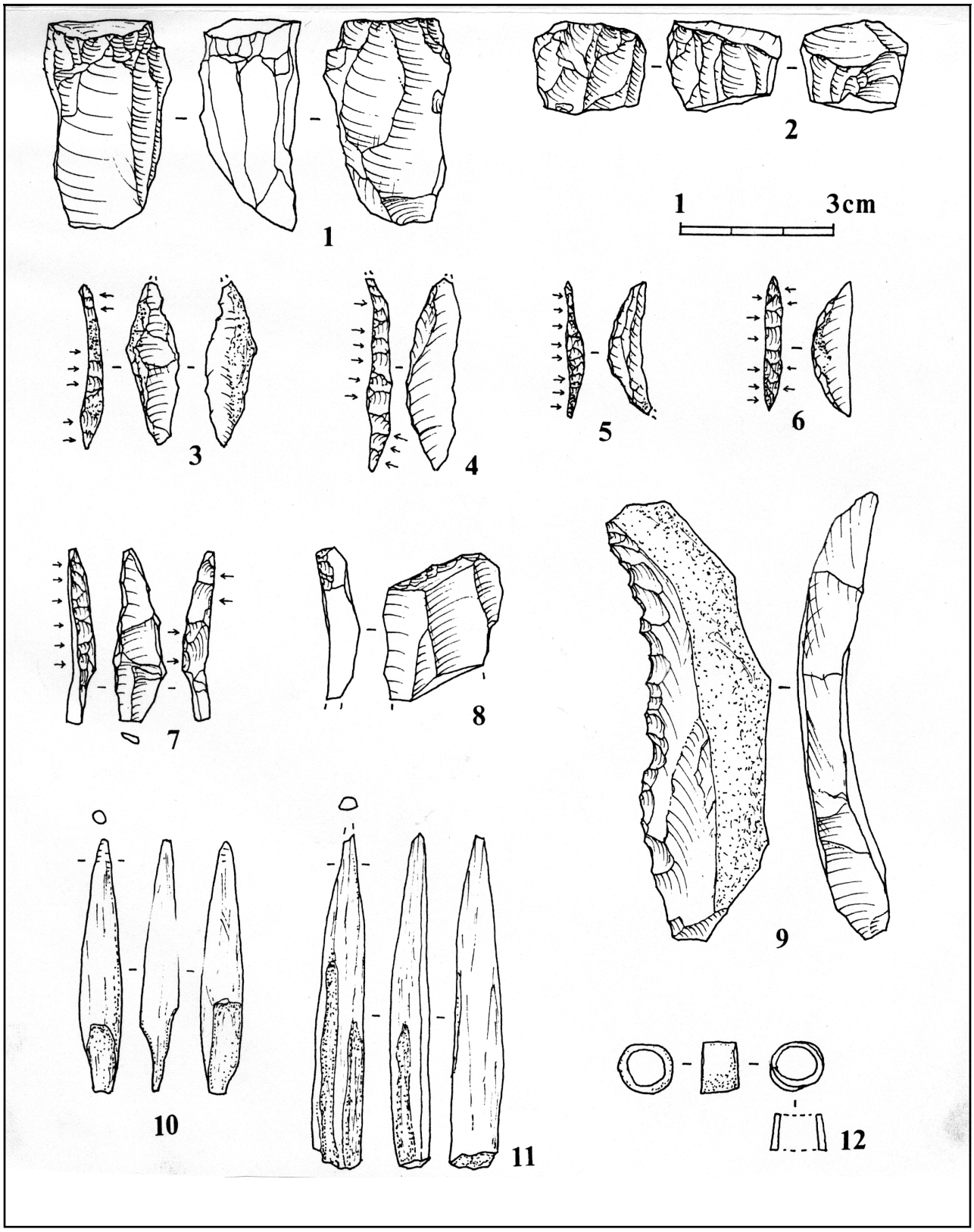

شكل ٩: أدوات حجرية نطوفية من مغارة الديدرية : ١-٢: نوى، ٣-٦: هلاليات، ٧: مخرز ، ٨: مكشط، ٩: أداة مسننة، ١٠-١١: أدوات عظمية، ١٢: خرزة من العظم .

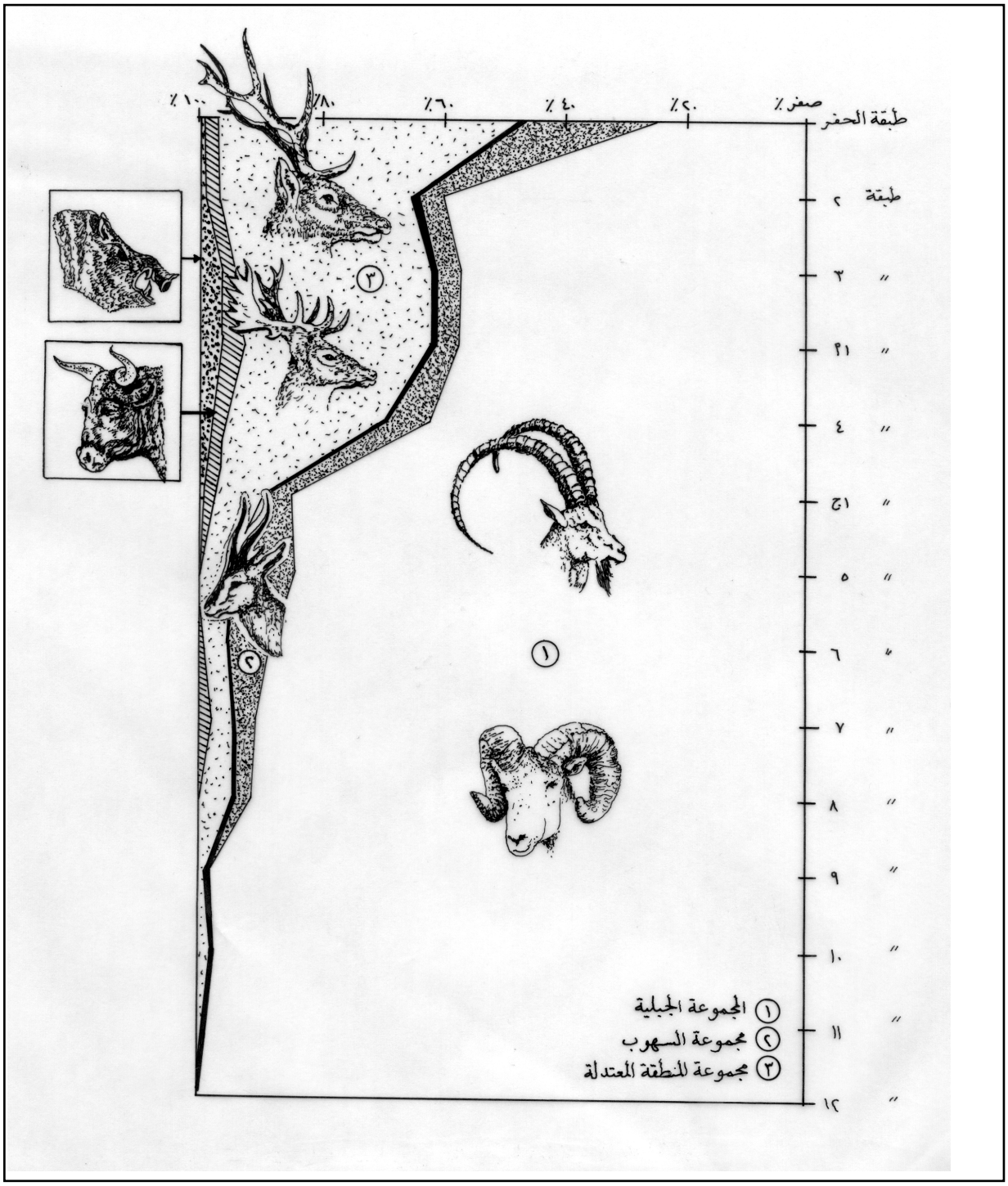

شكل ١٠: نسبة وجود المجموعات الحيوانية الثلاثية في مختلف الطبقات : ١- المجموعة الجبلية، ٢- مجموعة السهوب، ٣ - مجموعة المنطقة المعتدلة .

هامش:

(١) كان الكشف واقعة طريفة، إذ التقى في اللحظة نفسها، داخل المغارة، السيد أكازاوا، الذي صعد إلى المغارة من خلال بابها المشرف على الوادي، مع كاتب البحث، الذي هبط إلى المغارة من طريق بابها من جهة الهضبة. فكانت بذلك كشفا سورياً يابانياً حقيقياً.

المراجـــع:

أولاً: المراجع العربية:

عبدالسلام، عادل ١٩٩٠، **الأقاليم الجغرافية السورية**، منشورات جامعة دمشق، سوريا.

محيسن، سلطان ١٩٩٩، **عصور ما قبل التاريخ**، منشورات جامعة دمشق، سوريا.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Akazawa, T., Sakaguchi, Y. (eds) 1987. **Paleolithic sites of the Douara Cave and Paleogeography of Palmyra Basin in Syria**. Part IV, Bulletin No. 29, The University Museum, The University of Tokyo.

Akazawa, T., Dodo, Y., Muhesen, S., Abdul-Salam, A., Abe, Y., Kondo, O., and Mizogcuhi, Y. 1993. "The Neanderthal remains from Dederiyeh cave Syria" Interim report, **Anthropological Science** 101: 361-387.

Akazawa, T., Muhesen, S., Dodo, Y., Kondo, Y., Mizoguchi, Y., Abe, Y., Nishiaki, Y., Otta, S., Ogouchi, T., Haydar, J. 1995a. "Neandertal infant from Dederiyeh", **Paleorient** 22/2: 77-86.

Akazawa, T., Muhesen, S., Dodo, Y., Kondo, O., and Mizogouchi, Y. 1995b. "Neanderthal Infant Burial", **Nature** 377: 585-586.

Akazawa, T., Muhesen, S., Ishida, H., Condo and Griggo, C., 1999. "The Dederiyeh cave in Syria", **Paleorient** 25/2: 129-142.

Bar-Yosef, O. 1992. "The role of Western Asia in modern human origins", **Philosophical Transaction of The Royal Society**, Serie B 337:193-200.

Besancon, J., Geyer, B., and Muhesen, S. 2000. "Note preliminaire sur le Quaternaire dans la vallee du Naher Afrin (Syrie)", **Paleorient** 26/1: 67-72.

Coon, Ch. S, 1959. **The Seven caves, archeological exploration in the Middle East**, A. Knopf, N.Y.

Copeland, L. 1975. "The middle and upper Paleolithic of Lebanon and Syria". In: **Problems in Prehistory: North Africa and the Levant**, F. Wendorf, A. Marks (eds), Dallas, Southern Methodist University Press.

Dodo, Y., Kondo, O., Muhesen, S., Akaszawa, T., 1998. " Anatomy of Neanderthal Infant Skeleton from Dederiyeh cave Syria". In: Akazawa, T., Aoki, K., and Bar-Yosef, O. (ed) **Neanderthal and Modern Humans in Western Asia,** pp: 323-338 New York, Plenum-Press.

Gregg, C. 2000. "Adeptations environmentales et activites de subsistence au paleolithique moyen en Syrie". Fondation Fyssen, **Annales** nr 15: 49-62.

Muhesen, S., Akazawa, T., Abdul-Salam, A. 1988. "Prospection prehistorique dans la region d Afrin (Syrie)", **Paleorient** 14/2: 145-153.

Sanlaville, P., (ed) 1979. **Quaternaire et prehistorie du Nahr el Kebir Septentrional, les debut de 1, occupation humaine dans la Syrie du Nord et au Levant**. Edition C. N. R. S. Paris.

Vadermeersch, B., 1989. "The evolution of modern humans, recent evidence from southwest Asia". In: **The human revolution,** P. A. Mellars and C.B. Stringer (ed), pp: 155-163, Princton University Press.